الخيرية الكبيرة ، ومع ان البارون وافقه على رأيه ، الا أن أقوال الصحفي المغمور حزت في نفسه . ولعله كان يرد التحية لهيرتزل ، عندما غمز من قناة المفكرين اليهود .

اننا من خلال دراستنا للمبارزة اللفظية بين الرجلين ، نشعر بأن التناقض بينهما مبعثه الغيرة والحسد المتبادلين ، قبل أي شيء آخر . فلنبدأ بالبارون : انه شديد الاعتزاز بمكانته كرأسمالي كبير ، وكزعيم لليهود . وقد سبق له أن انفق الملايين على تهجير ابناء جلدته ، واعادة توطينهم ، ورفع مستواهم الاجتماعي ، مما جعل صورته تحلي جدران مئات البيوت في أكثر من قارة . ثم انه ينحدر من أسرة لعبت دورا قياديا في مساعدة اليهود على نيل حقوقهم المدنية ، اضافة الى أعمالهم الخيريـــة في أوساط الفقراء اليهود . ولكن بعد ذلك كله يأتي هذا الشاب المغمور ( كان هيرتزل في الخامسة والثلاثين من عمره عند المقابلة ) ليحاضره في أمور كانت تشغل بال هيرش حتى قبل مولد هيرتزل . بل ويلعب دور النبي وصاحب الرؤيا التاريخية امامه ، وكأن هيرش لم يفكر في انشاء دولة يهودية !

انه ببساطة ينتزع صولجان القيادة من يده ويلغي كل تاريخه المجيد في مساعدة ابناء جلدته . ومع ذلك ، فهو لا يملك الا ان يحسد هيرتزل . فهيرتزل شاب ، وهو عجوز . وهيرتزل صاحب رؤيا ، بينما هو لا يعدو ان يكون صاحب مال ، أي رجل مادة . ومهما كان اليهودي بعيدا عن التدين ، فهو يظل يكن التعظيم للانبياء ، لا سيما وان التاريخ اليهودي زاخر بهم ، وكان الويل دائما يلحق بمكذبيهم . ثم ان هيرتزل يحمل برنامجا كاملا شاملا ، بينما لم يكن هيرش قد وصل الى تلك المرحلة بعد . صحيح انه فكر في استحصال الاستقلال لمستعمراته في الارجنتين ، الا أن تلك الفكرة لم تنضج بعد في ذهنه .

اما بالنسبة لهيرتزل ، فحسده كان منصبا على ثراء البارون ونفوذه العظيمين . فقد أدرك بأن الرؤيا مهما كانت عظيمة ، فهي لا تجترح المعجزات التي يجترحها المـــال والنفوذ . وهو في الدور الذي اختاره لنفسه كنبي لليهود ، يحتاج الى المال ، بقدر ما يحتقر هؤلاء الذين سيمولوه . انه يلفت نظر البارون بوضوح الى الفرق بينهما ، عندما يقول : الرؤيا وحدها تشد نفوس البشر ، والذي لا يعرف كيف يتعامل مع الرؤيا ، قد يكون شخصا ممتازا وجديرا وعمليا ، **بل وحتى محسنا على نطاق واسع ، لكنه لن يصبح زعيما للرجال ، ولن يخلف وراءه أثرا** » .

ويواصل هيرتزل العزف على هذه النغمة ، فيعرض عـــلى هيرش منصب القيادة العامة لجيش الدولة العتيدة ، مقابل خمسين مليون مارك ! نكتة ؟ أفلا يعلم هيرتزل ان هيرش لم يحمل في حياته بندقية سوى بندقية الصيد ، ثم انه في ســـن لا تسمح له بالانخراط في السلك العسكري ، وأخيرا وليس أقل اهمية ، فالدولة اليهودية المقترحة كانت ما تزال في طيات الغيب ؟

ثم اننا نلاحظ تلميحات هيرتزل المستمرة الى وجود مصادر اخرى للمـــال فيما لو امتنع هيرش عن المساعدة . فهيرتزل يعرف مدى التنافس بين هيرش وروتشيلد على تزعم اليهود . وهذه التلميحات تغيظ هيرش وتجعله يقول : « اليهود الاغنياء لن يدفعوا شيئا ، فالاغنياء تافهون ، ولا يهتمون بمعاناة الفقراء » .

وطبعا يعرف هيرش حق المعرفة انه ليس الثري اليهودي الوحيد الذي أبدى اهتماما بمساعدة ابناء جلدته . الا ان طعنه بالاغنياء اليهود يشـــير الى اهتمامـــه بمشروع هيرتزل ، ورغبته في أن يلجأ هيرتزل اليه ، واليه فقط ، بقدر ما يشير الى غيرته من آل روتشيلد .